الكون

تقول د. «ماريا مونتيسوري»:

«دعونا نمنح الطفل رؤية للكون كله، ففي تأمل الكون سوف يجد الطفل الإجابة على جميع أسئلته، جميع الأشياء تمثل جزءًا من الكون وترتبط بعضها مع البعض لتشكل وحدة كاملة. هكذا يتوقف ذهن الطفل عن السعي بلا هدف تجاه المعرفة».

خلال دراستي لنهج المونتيسوري استوقفتني كلمات «ماريا مونتيسوري» تلك!

كيف يمكن لعقل طفل أن يستوعب الكون؟ كيف يمكن لهذا الطفل فهم ما درسته أنا شخصيًّا في المرحلة الإعدادية، ولم أستوعبه؟ في البداية، عندما كان «آدم» صغيرًا، كنت أظن أن دوري كأم تتبع نهج المونتيسوري هو التركيز على الأبجدية والأرقام والمهارات الحياتية. ظلت كلمات «ماريا مونتيسوري» عن الكون تتردد في ذهني، وراقبت ابني عن قرب في انتظار أي إشارة منه لبدء مرحلة حساسة جديدة تتملكه فيها الرغبة في المعرفة.

جاءت الإشارة الأولى فجأة!

كنا نجلس معًا في البلكونة ليلًا لأنه أراد أن يرى النجوم، وكانت السماء صافية والنجوم متناثرة متلألئة. كسر «آدم» الصمت حينما قال إنه يريد أن يمسك نجمة. قلت له إن النجوم بعيدة وأنه صغير فكان رده التلقائي أن أذهب أنا وأحضر النجمة. ثم أدركت أن هذه هي اللحظة التي أشارت لها «ماريا مونتيسوري»، بداية مرحلة حساسة جديدة يهتم فيها الطفل بالكون من حوله. أحضرت أدواتي ومعداتي وبدأت في الشرح وأنا أراقب هذا الوجه الصغير يزداد شغفًا!

شبهت كوكب الأرض بالبالون وقلت له إن منزلنا فوق بالون كبير اسمه كوكب الأرض. سأل عن منزل جده وعمتي وجميع أصدقائنا، وأكدت له أن كلنا نحيا على سطح هذا البالون. ثم أحضرت مجسمًا وصورة لرائد فضاء وتأملنا ملابسه معًا، وقلت له إن هذا الشخص وزملاءه يستطيعون اختراق البالون ورؤية النجوم في الفضاء. ثم أحضرت صورة أخرى لمركبة فضاء فأدرك أن هذه هي «سيارة» رجل الفضاء. ثم أحضرت خريطة للمجموعة الشمسية وتركتها في يد «آدم» بدون شرح. وجد عليها رجل فضاء ومركبة فضائية والكثير من النجوم ثم سأل عن القرص الأصفر الكبير، فأجبته: إنها الشمس ثم سأل أين القمر فأشرت إليه، وأشرت إلى كوكب الأرض فطلب أن يرى بيتنا!

وضعت خريطة الكواكب جانبًا وأحضرت مجسم الكرة الأرضية وتركت «آدم» يحركه بحثًا عن بيتنا. أشرت إلى مصر وقلت له إننا نعيش في هذا البلد. أشار إلى بلد آخر فقلت له اسمه وقلت له أن جده كان يعيش هناك. أشرت له إلى بلد آخر وقلت له إنني زرته وأشرت إلى بلد آخر وقلت له إن والده زاره. ثم أحضرت خريطة مصر وأشرت له إلى محافظتنا ومدينتنا.

أصبحت هذه لعبتنا اليومية! السماء، النجوم، الشمس، القمر، السحاب، التنبؤ بالمطر، الكرة الأرضية والخروج منها إلى الفضاء الواسع أو اللعب بقاراتها والبلاد المختلفة.

شروط اللعبة:

- الطفل هو الذي يبدأ اللعب دائمًا! عليكم بمراقبة طفلكم وتتبع أسئلته لفهم اهتماماته ومراحله الحساسة.

- لا تسهبوا في الشرح والحكي حتى لا يشعر الطفل بالإرهاق.
- اعتمدوا على التنوع في الوسائل التوضيحية.
- لا تستخدموا صورًا كارتونية ورسومات تعبيرية؛ اختاروا صورا حقيقية ورسومات واقعية.
- اللعبة تنتهي عندما يفقد الطفل اهتمامه، لا تضغطوا عليه ولا تجبروه على استكمال اللعب.

تثق «ماريا مونتيسوري» في الطفل ثقة كاملة، وتوجه كلامها كله للأهل أو القائمين على رعاية الطفل فتقول إن عقل الطفل مصمم ليسأل ويحركه فضول وشغف للمعرفة، ولكن على المحيطين به تهيئة البيئة المناسبة للطفل ليستكشف! لن يسأل الطفل عن المحاصيل أو الزرع أو الفراشات وهو يقضي معظم يومه في الداخل. لن يسأل الطفل عن الحيوانات إذا لم يرها ويتفاعل معها! لن يسأل عن الموسيقا إذا لم يسمعها ولم تعزفها له! لن يسأل عن الفن إذا لم يستكشف جوانبه! كذلك، الطفل لن يفهم ويمتص العلم إذا لم يسأل عنه ويطلبه!

في يومٍ ما فتحت النافذة ووقف «آدم» مذهولًا! أين الجيران؟ لقد اختفى كل شيء. أين يداي الممدودتان أمامي؟ إنها شبورة!

في يومٍ آخر، لمس لعبة في البلكونة ووجدها مبللة، فسأل إن كانت الدنيا قد أمطرت، فقلت له إنها قطرات الندى!

مثلما فتح «آدم» نفسي على الحياة، فتح نفسي على العلم. لقد درست وما زلت أدرس وأتعلم لأستمتع معه بالمعرفة والاستكشاف. ما أجمل الكون من منظور طفل يحركه الشغف والفضول!